خطبة صلاة الجمعة 21/ 4/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(نفع الآخرين عند النبي ﷺ وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار «**مكارم الأخلاق**».

هذه الخطبة التاسعة والعشرون في سلسلة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (أخلاق النبي ﷺ، وكيف نتحلّى بها).

وبما أننا في رمضان فقد اخترت أخلاقاً للنبي ﷺ نحتاجها في الأوقات عامة ونحن لها في رمضان أحوج، فستتحدث خطب رمضان بإذن الله عن الجود والإحسان وتقديم النفع والقناعة، تحدثت الخطبة قبل الماضية عن الجود والماضية عن الإحسان إلى الخلق.

وعنوان خطبة اليوم: **نفع الآخرين عند النبي ﷺ وكيف نتحلى به.**

ألَّف سلطان العلماء العزُّ بن عبد السَّلام كتاباً من مجلدتين، جاوز السّتمائة صفحة سماه: (قواعد الأحكام في مصالح الأنام)، تحدَّث فيه أنَّ الشَّريعة كلَّها تدور على قاعدةٍ واحدةٍ، هي: جلب المصالح ودرء المفاسد.

حرّمت الشريعة الخمر والرِّبا والزِّنا وعقوق الوالدين والشِّرك بالله وسائر المحرمات لأنَّها تجلب ضرراً.

وفرضَت الصَّوم والزَّكاة والعِلم والذِّكْر والصَّلاة وسائر المفروضات لأنَّها تأتينا بمنافع كثيرة.

فالشَّريعة دائرة على نفع الخلائق بجلب المصالح لهم ودفع المفاسد عنهم، وكل من كان من عباد الله نفّاعاً للخلق يجلب لهم المنافع ويدرأ عنهم المفاسد فهو إلى الله أقرب، قَالَ رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللهِ، أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، يَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ يَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ يَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا**» [الطبراني].

ولهذا كان أنبياء الله تعالى خيرَ من قدم النفع للبشرية ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 73] ومن ثم جاء التوجيه الإلهي للمؤمنين من بعدهم ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77].

فتقديم النفع للآخرين صفة الأنبياء والمؤمنين من بعدهم.

وإذا كان حديث اليوم عن نفع الآخرين عند النبي ﷺ وكيف نتحلى بذلك، فإليكم هذه المواقف من السنة المطهرة.

1- روى الإمام البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حديث بدء الوحي وفيه: (فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: (زملوني زملوني). فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: (لقد خشيت على نفسي). فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ).

فالنبي ﷺ كان معروفاً بنفع الآخرين من صلة الرحم وإعانة الضعيف وإكرام الضيف ومساعدة الفقير وغيرها من الخلال الحميدة التي لا يخزي الله صاحبها أبداً.

2- روى الإمام أبو داوود في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: «**يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّاهُ، أَلَا أُعْطِيكَ، أَلَا أَمْنَحُكَ، أَلَا أَحْبُوكَ، إِذَا أَنْتَ فَعَلْتَ ذَلِكَ غَفَرَ**

اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ، خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ، صَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، عَشْرَ خِصَالٍ»

ثم علمه صلاة التسابيح.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يعرض النفع على من حوله ليقدمه لهم، وكُتب الحديث مليئة بتقديم النبي ﷺ العلم للناس وبذله الخير لهم: (ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن)، (أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً هِيَ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ)، (أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ تقُولُهَا فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاتِكَ؟)، (ألا أُخبركم بأحبّكم إليَّ وأقربكُمْ منّي مجلساً يومَ القيامة؟).

وسار الصحابة على هذا المنوال فهذا أبو هريرة يحدث أنس ابن حكيم فيقول: (يا فتى، ألا أحدثك حديثا لعل الله أن ينفعك به؟ قلت: بلى، يرحمك الله).

إنها صور من صور تقديم النبي ﷺ النفع للآخرين.

3- روى ابن حبان في صحيحه عن أَبِي كَثِيرٍ السُّحَيْمِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قُلْتُ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، قَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فقَالَ: "يُؤْمِنُ بِاللهِ"، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ مَعَ الإِيمَانِ عَمَلاً؟ قَالَ: "يَرْضَخُ مِمَّا رَزَقَهُ اللهُ"، قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ مُعْدَمًا لَا شَيْءَ لَهُ؟ قَالَ: "يَقُولُ مَعْرُوفًا بِلِسَانِهِ"، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ عَيِيًّا لَا يُبْلِغُ عَنْهُ لِسَانُهُ؟ قَالَ: "فَيُعِينُ مَغْلُوبًا"، قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا لَا قُدْرَةَ لَهُ؟ قَالَ: "فَلْيَصْنَعْ لأَخْرَقَ"، قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ أَخْرَقَ؟ قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيَّ فقَالَ: "مَا تُرِيدُ أَنْ تَدَعَ فِي صَاحِبِكَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ، فَلْيَدَعِ النَّاسَ مِنْ أَذَاهُ"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذِهِ كَلِمَةُ تيْسِيرٍ؟ فقَالَ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ عَبْدٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا، يُرِيدُ بِهَا مَا عِنْدَ اللهِ، إِلَّا أَخَذَتْ بِيَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى تُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ".

إنه تعليم النبي ﷺ أصحابه صوراً من تقديم النفع للآخرين.

والحاصل – أيها الإخوة- أن نفع الآخرين كان خلق النبي ﷺ وكان معروفاً به، والمتوقع أن يكون الإحسان خلقك وأن تكون معروفاً بذلك.

- كان رجلاً قارب الستين من عمره، ذا شهادة علمية متواضعة ووضعٍ معاشي متوسط ووعي حياتي كبير وحبٍ لله شديد، اعتاد فعل الخير ونفع الآخرين وعملَ الصالح، يسكن في قرية وادعة هانئة.

لاحظ كما لاحظ أبناء قريته كثرة إصابة أطفال القرية وأفرادها بالإسهالات المتكررة والأمراض الهضمية، استشار طبيباً في القرية من أقاربه فأشار له بصواب ملاحظته.

وقع في خاطره أمرٌ، أخذ عينةً من مياه الشرب المتوفرة في منزله وذهب بها إلى واحدٍ من مخابر التحليل، وبعد فحص العينة تبيّن له ما جال في سره: هناك تلوثٌ في المياه.

مباشرةً وفي صبيحة اليوم الثاني قَدَّم شكوى لمؤسسة المياه، ورفع بالتعاون معها طلباً إلى الوزارة المعنية، وتابع مع اللجنة الفاحصة التي خرجت من الوزارة إلى قريتهم ما يجري، جمعوا عشرين عينة من مياه الشرب في القرية بطرق فنية تخصصية، ثم حللوا هذه العينات وفق الشروط العلمية، وتبيّن بالفعل وجودُ تلوث.

بدأت ورشات الكشف عن مصدر التلوث، وتبيّن بعد جهدٍ وجود مكانٍ صخري تمر فيه أنابيب للمياه المالحة وأخرى للمياه الحلوة، تعرّضَ هذا المكان لتهدم طارئ أسقط قطعةً صخريةً على خطي المياه والصرف الصحي عَرَّض الخطين للثقب، الأمر الذي أدى إلى تلوث مياه الشرب.

بعد اكتشاف الخلل تمَّ رفع التقارير العلمية والفنية في توصيف الحالة وطرق علاجها، وباشرت الجهات الحكومية المتخصصة بإصلاح الخلل، وتمَّ تغييرُ شبكة المياه كاملة في تلك القرية وإصلاح أعمال شبكة الصرف.

واحتاج الأمر إلى مراجعات جدية ومتابعات يومية لمدة شهرين، خلال شهرين كان هذا الرجل الذي قارب الستين يتابع ويراجع ويدعو الله أن يُجري خيراً للعباد على يديه حتى تحقق المطلوب، ونالَ فضلاً يعترفُ له بهِ أهلُ قريته بأجمعهم، وقبلَ أهلِ القرية سُجِّل له هذا العمل في ديوان السماء قبْل أن يَرِد إلى ديوانِ الأرض.

طوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وساق نفع العياد إليه، وحببه بالخير وحبب الخير إليه، فمن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليبادر إليه.

-اشترى سيدنا عثمان ابن عفان بئر رومة قرب المسجد النبوي في المدينة المنورة قبل أكثر من 1400 عام، وأوقفها على المسلمين، ولا تزال البئر حتى اليوم تروي سكان المدينة المنورة بمائها، وتسقي نخيلهم وأشجارهم. زُرِعَ حول البئر أكثر من 15 ألفا من النخيل على مساحة تقارب 100 ألف مترا مربعا، ليستمر وقف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى اليوم.

وحدثتكم غير مرة عن جمعية المواساة الخيرية التي أسست مشفى المواساة، وكيف تأسست في أربعينيات القرن الماضي بتبرعات تجار دمشق ووجهائها، ومازال خيرها ونفعها يفيد أهل دمشق بل أهل هذا البلد قاطبة، وكذلك حدثتكم عن مدرسة ست الشام وعن سوق ماء عين الفيجة إلى دمشق، هذه كلها أعمال نفع للآخرين تفيد البلاد والعباد.

طوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وساق نفع العياد إليه، وحببه بالخير وحبب الخير إليه، فمن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليبادر إليه.

- في حي الصالحية الدمشقي كانت عيادة طبيب الفقراء كما يلقبونه، حيث كانت أجرة المعاينة لديه أقل بكثير من نظيرتها عند غيره من الأطباء، وربما لم يأخذها وربما قدم للمريض شيئا من الأدوية بالمجان، وكانت عيادته مزدحمة دوما بالمرضى، توفاه الله تعالى وقد ترك إرثا من الرحمات تتنزل عليه من سكان حيه وسكان دمشق كلما ذكر أو تذكره الناس لأفضاله وإنعامه عليهم بعلمه وماله ووقته.

طوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وساق نفع العياد إليه، وحببه بالخير وحبب الخير إليه، فمن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليبادر إليه.

أيها الأخوة:

مما يساعد على التحلي بخلق نفع الآخرين:

أولا: تذكر أن الجزاء من جنس العمل، وأن من ساق خيرا لغيره ساق الله الخير إليه، وأن من نفع الخلق تقرباً للخالق رفع الله شأنه بين الخلائق.

ثانيا: صاحب من أجرى الله نفع العباد على يديه، وتعرف على المؤسسات والأعمال الخيرية التي أسست بهدف تقديم النفع للآخرين، وكان مشهود لها بالبر والتقوى، وتعاون معهم فإنهم يدربونك على نفع الآخرين، ويفتح الله على أيديهم لك أبواباً من ذلك الخير.

ثالثا: بادر بنفع الآخرين كلما استطعت، وكرر ذلك كلما تمكنت، حتى يصير نفع الآخرين لك عادة. فالأمر الذي تكرره يرسخ والذي تهمله يُنسَخ.

أيها الإخوة:

أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ فإنه من صلى عليه صلى عليه ومن سلم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه ﷺ وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

والحمد لله رب العالمين